الدكتور محمد حسَّان الطيَّان

كلمة طلاب الفقيد

يا دهرُ بعْ رتبَ العلا من بعدِهِ   بيعَ السماحِ ربحتَ أم لم تربحِ
قدِّم وأخِّر من أردتَ من الورى   مات الذي قد كنتَ منه تستحي

رحم الله أستاذنا الفحام وأسبغ عليه سحائب مغفرته وشآبيب رضوانه، ولئن فقدت فيه الأمة الوزير والسفير ، والرئيس والمدير، والأمين والخبير..لقد فقدنا نحن طلابه فيه المعلم الإنسان، والمربي الشفوق، والمحقِّق العليم، والمدقِّق البصير. فكم بث فينا من أمل! وكم أذكى في نفوسنا من روح! وكم بعث في جنباتنا من رجاء!. ولعل خير عزاء لنا في فقده قول الشاعر:

لقد عزى ربيعة أن يوما   عليها مثل يومك لايعود

عرفت الأستاذ الدكتور شاكر منذ أكثر من ثلاثين عامًا عندما كنت على مقاعد الدرس في قسم اللغة العربية, وإن أنسَ لا أنسَ إطلالته المحببة أستاذًا للأدب الأندلسي في المحاضرة الأولى من يوم الثلاثاء, لا يصرفه عنها صارف, ولا يصدِفُهُ عنها ما كان يتقلّده من أعباءِ الوزارة, ولا ما يشغله من المهامِّ الجسام. ولعلّ أجمل ما في محاضرته – وكلّها رائع مفيد – تلك الفوائد التي كان ينثرها في تضاعيفها, ويتبدّى فيها جانبٌ من جوانب علمه الغزير, وحرصه على إفادة طلابه.

وفي رحاب الدراسات العليا تعرفت بجانبٍ آخرَ من جوانب علم أستاذنا، من خلال تدريسه مادةَ الدراسات الأدبيةِ لطلبةِ دبلوم الدراسات اللغوية, وفيه عرفنا كيف تمتزج اللغة بالأدب, حيث كنا على موعد مع دراسته المتميزة للفرزدق, شاعرِ العربية الفحل.

ثم سنّى لي الله أن أنعم بصحبة أستاذنا الجليل في رحلة علمية طويلة؛ وذلك حين أحسن بي بإشرافه على رسالَتَي الماجستير والدكتوراه – وهو الذي أشرف على مئات الرسائل الجامعية – فتكشَّفت لي جوانب من علمه وفضله وخلقه عَزَّت نظائرها, لقد وجدت فيه المشرف العالم, والمعلم الحاذق، والمربي النصوح, والأديب المرهف, والمتتبع الخبير, والقارئ المدقق, إلى أمانة نادرة, وقلب واعٍ, وحافظة حاضرة (وخير الفقه ما حوضر به). لا يألو جهدًا في تعليم طالبه, والأخذ بيده وتشجيعه, وتقويم خطئه بأرق ما أوتي المعلمون من أساليب التقويم, لا يمسُّ كرامة, ولا يجرح شعورًا, بل هو يرقى بتلميذه أعلى معارج السمو الإنساني. أستمع إليه وقد كتب لي بعد قراءته الفصل الأول من رسالتي للدكتوراه, ووضع الملاحظات المختلفة عليها: «الأخ حسان هذه ملاحظات أرجو أن تناقشها ثم تذاكرَني بها, إنها ليست قاطعة, ولكنها مناسبة للتفكير للوصول إلى الأحسن حتى يخرج التحقيق بأحسن وجه ممكن إن شاء الله, وأرجو الإسراع فما قدّمته قليل قليل, فمتى تبلغُ الغايةَ إذا مضيت على هذه المسيرة؟!» أيُّ رقة هذه وأيُّ مربٍّ عظيم وراءها؟!.

على أن عناية الأستاذ بنا معشر طلابه لم تقتصر على إشرافه على رسائلنا الجامعية, وإنما تعدتها إلى كل بحث نقوم به, فهو مفزعنا, وصاحب معضلاتنا, وموضِحُ مشكلاتنا, نقصده فما نجد عنده إلا الحفاوة والتشجيع, ولا غرو فهو حفيٌّ بطلابه, كريم بعطائه, لا يضنُّ عليهم باستشارة, ولا يبخل بمراجعة أو تدقيق أو تقديم. صحبته بضعًا وثلاثين سنة ما أذكر أني رجوته النظرَ في مقال أو مراجعةَ كتاب أو التقديمَ لتحقيق أو بحث إلا كان نعم المجيب.

ولا أعرف أحدًا من أصحابنا قصده للإشراف على بحث, أو النهوض بدراسة,

أو مراجعة تحقيق, أو حتى الحصول على مخطوط, أو كتابة مقدمة لمؤلَّف إلا مدَّ له يد العون والعناية, والتشجيع والرعاية, وما أكثر ما أخذ بيد الناشئين في رحاب العربية من طلابها ومحبيها ودارسيها, يشجعهم ويغذوهم بلِبان العلم, ويشدّ من أزرهم, ويذْكي فيهم روح المتابعة والتحصيل, يقرّب إليهم البعيد, ويدني منهم النائي, يشرف على بحوثهم, ويقوّم منآدها وينفي عنها ما أصابها من الخطأ والخطل, وكثيرًا ما يتوّج ذلك كلَّه بكتابة مقدماتٍ لها ولسان حاله ومقاله يردد:

إنَّ الهــلال إذا رأيــتَ نمــوَّهُ   أيقنْتَ أنْ سيكونُ بـدرًا كـاملا

ولو أن ما كتبه من مقدمات جُمع في صعيد واحد لكان لنا منه كتاب عنوانُهُ: تشجيع الباحثين وشحذ الهمم. بل إن عنوانه بكلمة واحدة: بناء الرجال

يـبني الرجـالَ وغـيرُهُ يـبني القـرى   شتّـان بـين مـزارعٍ ورجـالِ

ولعلَّ من أبرز مظاهر عناية الأستاذ بطلابه تلك المناقشات التي كان يشارك فيها, فقد تحوّلت به وبأمثاله من كبار الأساتيذ إلى أنديةٍ علميّةٍ يسمع فيها الطالب كل مفيدٍ وطريفٍ. مازلت أذكر كيف كان يفسح المجال للأساتذة المناقشين يتقدمونه بالقول حتى إذا ما فرغت جَعَباتُهم شرع يقول: «لم يتركْ لي الزملاء بقيّة...» وراح يتحفنا بأفانين من القول ودقائق من التحقيق وطرائفِ الأمثال والشواهد تنسي كلَّ ما تقدّم.

إذا قلـتُ شـارفنا أواخـر علمـه   تـدفّق حـتى قلـت هـذي أوائلـه

أحبَّ أستاذنا الفحام – برّد الله مضجعه – العربية وأصفاها زهرة عمره, ومنحها كلَّ وقته, ووهبها كل طاقته وجهده, فهو المتبتِّل في محرابها أبدًا, والقائم بشؤونها أنىّ كان أو حلَّ وارتحل, لا تكاد تراه إلا كاتبًا لمقال عنها, أو مشاركًا في

ندوة لها, أو مؤلِّفًا لكتاب فيها, أو مراجعًا لنتاج يتعلق بها, أو مترئسًا للجنة تعمل في سبيلها.

وهو عالم أسس بنيانه على قاعدة صُلبة من قراءة التراث العربي الإسلامي القراءَةَ المستوعبة, فهو عنده كلٌّ متكامل لا يغني فيه فنٌّ عن فنّ, ولا يُترك كتاب لكتاب, نَهلَ ما نَهل وعلَّ ما علَّ من علوم اللغة العربية وآدابها, وتاريخ الرجال وسيرهم, وعلوم القرآن والحديث وغريبهما, فاستوى له من ذلك كلِّهِ علمٌ أصيلٌ غزيرٌ موصولٌ بعلم الأوائل من أرباب اللغة وأعلامها.

فما شئت من بصرٍ بالشعر وعلم بغرائبه, وإحاطةٍ بالتاريخ ووقوف على دقائقه, ومَكِنَةٍ من العربية تجاوزت حدَّ التخصص إلى حيِّزِ الإبداع والابتكار؛ فقد أمكنته اللغة من قيادها وألقت إليه بأسرارها. كل ذلك إلى خلق نبيل, وتعامل حلو جميل, وسياسة وحُنْكةٍ فاقتِ الوصف «إنَّ الكلامَ يَزينُ ربَّ المجلس» فهو كما قال الأول: «حَنيكٌ مَلِيٌّ بالأمورِ إذا عَرَتْ».

يزدحمُ الناسُ كلَّ شارقةٍ ببابِهِ مُشرِعينَ في أدبِهْ

ولأستاذنا الفحام نمطٌ فريدٌ آسرٌ في الكتابة كأنّما قُدَّ له, لا يكاد يَشْرَكُهُ فيه أحدٌ من الأدباء أو الكتّاب.

في نظامٍ من البلاغة ما شـ ـكَّ امرؤٌ أنّه نظام فريدُ

يروعُكَ فيه هذا النَّفَسُ الأدبي المتميز, والغنى المبهرُ بنفائسِ التراث شعرِهِ ونثرِهِ وأمثالِهِ, وفي أسلوبه من الإشراق, وجمال الديباجة, وإحكام النسج, وعذوبة البيان, وسلامة الطبع, ما لا يخفى على كلِّ قارئ متذوّق, شهد بذلك أساتذته ورصفاؤه قبل تلامذته ومريديه, وتُوِّج بنيله جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي لعام ١٩٨٩. وحسبي أن أدلل على ذلك بفقرة جاءت في ختام كلام طويل له من كتابه نظرات في ديوان بشار بن برد يقول فيها:«وأنا لا أزعم أن ما

جئت به هو الحقُّ الصُّراح, وإنما هو الرأيُ لاح لي فسجَّلتُه مقرونًا بحجّته, لا أملِك أن أقطع فيه بيقين. فإنْ قُسم لي أن أُصيبَ فبحمد الله وعونه, وإن تكن الأخرى فليشفعْ لي أني ما ابتغيتُ فيما أتيتُ إلا وجه الحقِّ وحده, أدور معه حيث يدور, لا يميل بي هوًى, ولا تستفزُّني شهوةُ المغالبة, ولا يعطِفُني إلْفٌ, ولا أنزِع إلى عصبية. وليعلّمْني أساتذتي السادةُ العلماء, ولْيفيضوا عليَّ من أنوار معارفهم. وإنما العلم بالتعلّم, جعلني الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه». أيُّ بيان هذا وأيُّ خلق نبيل وراءه؟!.

وقد تخرجتْ بأستاذنا الفحام أجيال وأجيال، وانتفعت بعلمه وفضله أفواج وأفواج، وتابعت التحصيل العالي على يديه نخب من الطلبة أصبحت اليوم ملء السمع والبصر في دنيا العربية من أمثال الدالي والبدوي النجار وأبو زيد والنبهان ومير علم وطليمات وأبو عمشة وعبد الله وغزال...وغيرهم وغيرهم كثير.

وما أنا إلا واحد من أجيال مرت عليها يد الدكتور شاكر فكانت كالديمة الهتون أينما هطلت أينعت وأثمرت، واهتزت لها الأرض وربت.

وقد كانت له يد عليَّ لا أنساها ما حييت، أحسن بها عليّ حين منعني الناس، وأنصفني حين ظلمني الناس، وحباني وقربني حين هجرني الناس!. وكان ذلك إبّان منقلبي كسيرًا حسيرًا من جامعة السوربون بفرنسة عام ١٩٨٦، إثر مقابلة لئيمة جافية مع من لا يرقب فينا إلاًّ ولا ذمة. فتلقفني أستاذنا الفحام – برّد الله مضجعه ونفّس عنه كربه – بعناية الأب الشفوق، ومودة المعلم الرفيق، وإصرار المربي النصوح، لأجد في كنفه كل الرعاية والحدب، وليشرف على الأطروحة التي نلت بها درجة الدكتوراه، تلك الأطروحة التي صنعتها على عينه، فحظيت منه بالاهتمام والتقدير، والمتابعة والتقويم، على كثرة مشاغله، وعظم

المهام الملقاة على عاتقه، ووفرة الورّاد الذين يردون حوضه ، فلا يجدون إلا أرحب صدر، وأوسع علم ، وأعظم معلم.

ولهذا تراني أردد فيه دائما بيت المتنبي الخالد:

وَقَيَّـدتُ نَفـسي في ذَراكَ مَحَبَّـةً وَمَن وَجَدَ الإِحسانَ قَيدًا تَقَيَّدا

وبعد فما زال أستاذي الدكتور الربداوي يوصيني بالإيجاز والاختصار حتى قلت:

هل يعتصرالبحر بقطرة؟! أو يختصر الجبل بصخرة؟! أو يجتزأ الروض بزهرة؟!

كل هذا لا يكون ! فأستاذنا الفحام أجلُّ من أن يحيط بفضله وعلمه ونبله وعطائه كلمات تُكتب أو عبارات تنمَّق. إنه كالعربية التي عاش لها .. ورفع رايتها.. ومات دونها، أحببناه حبنا للعربية، وبكيناه بكاءنا على حالها، وسيظل خالدًا في ضمائرنا وقلوبنا ما دام فينا قلب يخفق بحب العربية وأربابها.

ولا يسعني قبل أن أغادر مقامي هذا إلا أن أناشد كل محب لأستاذنا الفحام أن يشارك في كتاب للوفاء يصنَّف من أجله ومن أجل ما نذر له عمره.

أما أنت يا أستاذنا الجليل فرحمك المولى بقدر ما أسديت للغة من عطاء، وبقدر ما بنيت لهذه اللغة الشريفة من رجال، وبقدر ما أعليت لهذه اللغة من رايات وحصون.

وجعل ذلك كله زلفى لك عنده يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتهِ